

الاحتجاجات الاجتماعية والعدالة الاجتماعية

أ.د/فؤاد الصلاحي
أستاذ علم الاجتماع السياسي

مدخل :

المتتبع لأوضاع الوطن العربي قبل عام من الآن لم يكن ليخطر على باله إمكانية التغيير الجارف الذي حدث ولا يزال في جميع الدول العربية .. فتورة الشباب في تونس ومصر ألهمت حماس الجماهير العربية ودفعتها لكسر حاجز الخوف ورفع أصواتها عاليا للمطالبة ليس بالإصلاح السياسي الذي كان سائدا كخطاب نخبة من قيادات الأحزاب ومحترفي السياسة والمثقفين بل للمطالبة بسقوط الأنظمة ورحيل الحكام بما يعني ذلك في دلالاته إعادة بناء النظام السياسي برمته وفق لوازم دستورية وقانونية جديدة ووفق توجهات سياسية واقتصادية تنحاز للأغلبية من السكان .

فالواقع العربي بدوله الجمهورية والملكية يتماثل في مشكلاته وأزماته بدأ من غياب الديمقراطية وتقييد الحريات العامة وتعقب المفكرين والصحفيين الناقدين للنظم السياسية وتزوير الانتخابات إن وجدت ، وزيادة أعداد الفقراء والعاطلين وتزايد المعاناة الاقتصادية لغالبية السكان وتدهور أوضاع التعليم والخدمات الصحية .. في مقابل تضخم ثروة الأقلية التي أستملكت السلطة والثروة واتساع الفجوة بين الأغنياء و الفقراء وبين الريف والحضر وتزايد المهانة للعرب أفرادا ودول في العالم وفق الإجراءات المرتبطة بأحداث سبتمبر . كل ذلك وغيره شكل دافعا قويا لثورات الشباب العربي .. إذا هذه الثورات ليست ثورات جياح بل هي ثورات حرية وكرامة.

لقد تبادت النظم العربية في قهر المواطنين العرب وهدر إمكاناتهم وحقوقهم وتوسيع الفجوة بينهم وغياب العدالة الاجتماعية وظنوا أنهم بذلك سيحولون دون إمكانية للاحتجاجات او الثورات فخاب ظنهم حيث المتغيرات الدولية وخاصة ما يرتبط بشبكة الانترنت والفضائيات ونقلها أحداث العالم وانفتاح الشباب العربي على مصادر ثقافية ومعرفية وإعلامية جديدة شكلت أدوات تخليق لوعي سياسي جديد سرعان ما تحول إلى فعل سياسي بدأ من شعاراته المطالبية والنقائية وصولا إلى شعاراته و أهدافه السياسية والوطنية حيث التعبير الصريح والمباشر عن هدف تغيير النظم الحاكمة بل ومحكمة رموزها ..وهنا برزت ملامح التغيير

الثوري بطرق واليات جديدة وقوى طبقية لم تكن محل اهتمام من قبل النظريات السياسية والايولوجيات السابقة .

لماذا الحركات الاجتماعية :

الحركات الاجتماعية بشكل عام والشبابية منها خصوصا لا تأتي مصادفة -وليست عملا ترفيا - بل هي تعبير أصيل عن حاجة المجتمع للتغيير والتجديد والتقدم بشكل يتجاوز الواقع المأزوم إلى فضاء يعاد فيه تشكيل حياة سياسية جديدة .. فالواقع العربي عموما يعاني من أزمت بنوية شاملة للدولة والمجتمع... ولم يعد بالإمكان اعتماد رويته إصلاحية هنا ظهرت الحركات الاحتجاجية الشعبية كفاعل تغيير يهدف إعادة بناء النظام السياسي بمنظومته الاقتصادية والاجتماعية .. ولأول مرة يتحرك الشارع العربي من خلال لاعبين جدد وفاعلين اجتماعيين كانوا مهمشين ولم يكن احد من رموز النظام يتنبأ بفاعلية الشباب كقوة تغييريه . انطلاقا من أن النظام اعتمد كل الوسائل الإعلامية والثقافية والدينية والتعليمية لتقوم بإضعاف الوعي السياسي بل وتغييبه وربط الشباب بمرجعياتهم التقليدية .

وهنا برز غياب النظام وبلاطته متناسيا أن مصادر الوعي السياسي والثقافي لم تعد مرتبطة بالأطر المؤسسية الرسمية بل أصبح في زمن العولمة والانترنت العالم كله فضاء مفتوحا للتثاقف والاطلاع واكتساب الخبرات والمعارف والتواصل مع مختلف الفئات والحركات السياسية .

والشباب العربي ليس اقل ذكاء من نظيره الغربي بل شكلت العولمة وشبكة الانترنت مصدرا مهما لخلق علاقات جديدة تتجاوز الواقع وتقيدهاته واكراهاته .. هنا تقبل الشباب في دول الربيع العربي مصادر حدائية للتثقيف والتشكل السياسي فاستفاد منها وتجلت هذه المعرفة من خلال الشعارات والحوارات والكتابة الصحفية اليومية والأسبوعية في ساحات التغيير وفي مختلف المواقع الالكترونية والمدونات .

المحددات الاقتصادية الاجتماعية لثورة الشباب :

لماذا خرج الشباب ولماذا هذه الحركات الاجتماعية عربيا ويمنيا والتي أصبحت ثورات شبابية وشعبية ؟ هل كانت مجرد رد فعل لتسلط الأنظمة الحاكمة ؟ ام أنها تعبيراً عن رفض كامل للممارسات والسياسات بل ومنظومة السياسة برمتها ؟ وهنا تكمن الإجابة من خلال قرأتنا الأولية للمحددات الاقتصادية .. حيث الواقع الاقتصادي الاجتماعي يعكس تراكم أزمت البطالة والفقر وتزايد معاناة غالبية الأسر ،، فهؤلاء ادركوا حجم معاناتهم وغياب تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية حيث المجتمع يتصف باستقطاب متسع بين أقلية تستملك السلطة والثروة وأكثرية فقيرة ، بل ويتزايد عدد الأسر والأفراد الذين يقعون في دائرة الفقر كل عام ، إضافة إلى تزايد التهميش الاجتماعي والسياسي حيث الغالبية الفقيرة ومنهم غالبية الشباب مغيين عن دوائر صنع القرار السياسي ولا يشاركون في رسم السياسات العامة ولا يشعرون رغباتهم واحتياجاتهم الذاتية ماديا ومعنويا .

هنا تولد وعيا سياسيا مفارقا للواقع تشكلت بداياته في أنشطة احتجاجية مطلبية من خلال نقابات وجمعيات ومؤسسات مدنية مختلفة وكان نزول المتظاهرين بأعداد قليلة ولكن من فئات مهنية متعددة .. تبلور وعيهم من خلال النضال اليومي والمصادمات مع رموز النظام وأدواته القمعية ومع النظام ذاته الذي ذهب يقلل من أهمية هذه المظاهرات والوقفات الاحتجاجية ويستهن بها ويتهمها بأنها اذرع لأحزاب سياسية او لجماعات تعتمد التمويل والأجندات الخارجية .

الجدير بالذكر ان العوامل الاقتصادية والاجتماعية شكلت سببا فاعلا - إلى جانب المحدد السياسي الرئيسي - في نشوء الحالة الثورية القائمة حاليا ... فالخلل الكبير في توزيع الثروة والدخل وما يولده من مشكلات اجتماعية عميقة ومتعددة. أهمها ظهور تمييز معلن بين المواطنين (من خلال الوظائف المدنية والعسكرية والأمنية والدعم الاقتصادي والسياسي والخدمي) يتم الحديث عنه علنا بل وأصبح مجال للحديث العام في مختلف الصحف خصوصا الحزبية. . في هذا السياق تتفوق المعايير التقليدية على المعايير الحديثة في تحديد مكانة الفرد اجتماعيا وتحديد دوره السياسي والاقتصادي.

فالاحتكار العصبوى للسلطة والثروة تكمن دلالاته فى التعبير عن غياب دولة العموم التى تسمح بتداول المواقع والمراتب والمنافع بشكل قانونى ، هنا يغيب التوازن الاجتماعى ويضعف الاندماج الوطنى. خاصة وان الدولة العربية فى سعيها إلى التحديث والتنمية - كانت ولا تزال- تعتمد آليات تقليدية بل وتعيد إنتاج البنى والثقافة التقليدية وهى فى ذلك تزاخم عمليات التحديث او تشوهها.

هنا تبرز اهم معوقات بناء الدولة العربية الحديثة واهم إشكالات الاندماج الاجتماعى. فالتمييز السياسى يصبح وسيلة لتحقيق المصالح الاقتصادية والاجتماعية للبعض ضد مصالح البعض الأخر او على حسابها او بالانتقاص منها.

ومعنى ذلك ان النظام الحاكم عمل بشكل مقصود على تشكيل علاقات القوة والضبط الاجتماعى السياسى وخلق توازنات بين الجماعات التجارية والاقتصادية الناشئة وفقا لأصولها الاجتماعى والمذهبية ضدا على مبدأ المواطنة المتساوية . بتعبير اخر يمكن القول ان عدم تكافؤ الفرص واستمرار الرشوة والفساد وبالتالي انسداد فرص العمل وزيادة معدلات العاطلين والفقراء وتزايد حجم الحرمان البشرى لغالبية أفراد المجتمع تولد عنه تزايد الوعى تدريجيا بعدم المواطنة المتساوية وضعف الاندماج الاجتماعى وصولا إلى الإحساس **بالاغتراب** عن النظام السياسى(عن الدولة) حيث يحس الأفراد والجماعات بان النظام السياسى الحاكم يعمل ضد مصالحهم ومن ثم فهو لا يمثلهم ولا يعبر عن أهدافهم.

وهنا اجزم بالقول أن صناع القرار العربى قد ثابروا على اتخاذ قرارات تهدف إلى الترويج لثرواتهم وبالتالي مصالحهم الشخصية ،، وهذا الأمر استفاد منه كبار موظفى الدولة (مدنيين /عسكريين) والقريين من دوائر صنع القرار الاقتصادى والسياسى فهؤلاء عملوا على استغلال مواقعهم فى إدارة مؤسسات الدولة من اجل تجميع ثروات طائلة دون محاسبة قانونية. ذلك ان احتكار السلطة أدى إلى احتكار مماثل للثروة ولحماية هذا الاحتكار كان لابد من إضعاف أو تغييب المشاركة الشعبية وإضعاف الممارسة الديمقراطية او تغييبها.

هذا الاحتكار مسئول عن غياب العدالة الاجتماعى منظورا إليها من زاوية التفاوت الشديد فى توزيع الدخل والثروة وتهميش قطاعات واسعة من المجتمع هنا برز تحالف قوى شكل نخبة

متعددة المصادر (كبار المدراء للمؤسسات المدنية والعسكرية مع المستثمرين والشركات الأجنبية (تعتمد الفساد و الإفساد و الإثراء غير المشروع ونهب المال العام وقرهه إلى الخارج. صفوة القول لقد حولت النخب الحاكمة مشروعية بناء الدولة الحديثة من كونها منبع لقيم الحرية والمساواة إلى دولة رديفة للقيم القهرية وأداة استلاب تحكمها عقلية القبيلة والغنيمة وهنا تبرز الازدواجية في شخصية الدولة التي تكشف عن أسسها التقليدية الراسخة.

الحركات الاحتجاجية من منظور غرامشي :

وفقا للمنظور الذي قدمه انطونيو غرامشي في تحليلاته للحركات الاجتماعية باعتماد مفهوم الكتلة التاريخية والتي تشكل تحالفا جمعيا لقوى تستهدف تغيير النظام القائم وبناء نظام آخر بديل بشرط ان يكون لهذه القوى وعي بشروط تحالفاتها ومسارها التغييري ... وفي الوطن العربي يمكن القول مجازا بان التكتلات الشبابية والسياسية والحزبية شكلت نواة أولية للكتلة التاريخية حيث ينتمي أعضائها إلى تيارات متغايرة فكريا وسياسيا ومرجعيا إلا أنهم اتفقوا للعمل المشترك وفق محددات تكتيكية وليس إستراتيجية مما يقلل من وصف تحالفهم بالكتلة التاريخية ..

لكن حركة الاحتجاجات الشعبية ونمو مسارها في الشارع العربي خلال عام كامل ابرز بوضوح مسار تشكل الكتلة التاريخية من جموع أفراد الشعب حيث نشهد اصطفااف جمعي يشمل الريف والحضر متعلمين ومثقفين تجار وفلاحين جميعهم أدركوا أهمية اللحظة التاريخية للتغيير وان كانت حسابات البعض من هذه المجموعات ترتبط بمصالح شخصية مثل التجار وشيوخ القبائل وقادة المعسكرات وبعض القيادات الحزبية ناهيك عن مصالح لمشروعات فرعية للكثير من المجموعات المنضوية تحت الاصطفااف الجمعي مثل مصالح الحوثيين و الحراكيين.. لكن السمة الغالبة على هذا الاصطفااف رغبتهم في تغيير النظام القائم و إعلان نظام بديل .. نظام مدني ديمقراطي ...

وهذا الأخير لا تزال بعض القوى الحزبية غير واضحة في موقفها منه حيث ظهرت في الساحات منشورات وكتيبات تناهض مقولة الدولة المدنية الأمر الذي يترتب عليه شرخ في

بنية الكتلة التاريخية التي استقامت على أساس من وحدة الهدف والغاية المتمثل ببناء دولة مدنية ديمقراطية كبديل للنظام القائم وكأساس لاستمرار التحالف الوطني العريض .

سمات وخصائص تميز الحركة الاحتجاجية في دول الربيع العربي :

1. تعتبر تحركات الشارع من اجل تغيير النظم الحاكمة وإقامة حكم مدني ديمقراطي هدفا بحد ذاته وغاية هامة للتحركات الاجتماعية الشعبية وغياب مثل هذه الحركات خلال العقود الأربعة الماضية منح الاستبداد فرص للتنامي مع انتشار الفساد وفشل التنمية ومن خلال هذه الحركات الاحتجاجية استعادت الشعوب حيويتها لصناعة حاضرها ومستقبلها .

2. اعتبار العدالة الاجتماعية هدفا من هذه الاحتجاجات وركنا رئيسيا في مطالبها

3. أهم خاصية لهذه حركة الشعبية –الثورات الشبابية- أنها حركات وطنية لا طائفية ولا مذهبية ولا حزبية .. لها مطالب وطنية عليا. يشارك فيها جميع فئات وشرائح المجتمع .

4. أهم خاصية لهذه حركة الشعبية لا يوجد رئيس أو قائد يدعي دوره في إعلان هذه الحركات كما لا يستطيع حزب بذاته القول ان خطط وقاد هذه المظاهرات الاحتجاجية .. فبداياتها تحركات عفوية شبابية ثم أصبحت شعبية في إطار التفاف عموم المجتمع معها.

5. هذه الحركات ولأول مرة في تاريخنا العربي تعتمد على العلم ومنجزاته من خلال استخدام وسائل التواصل الاجتماعي للتنسيق ونقل الأخبار والمعلومات يوما بيوم فهذه الوسائل كسرت احتكار الدولة لنشر المعلومات .

6. مع الإقرار ببدايات عفوية لهذه الحركات وبدايات محدودة العدد إلا أنها توسعت لتشمل جميع المحافظات بل وغالبية المديرية الريفية .

7. الاصطفاف الاجتماعي الواسع بين مختلف مكونات المجتمع من سكان الريف والحضر متعلمين ومتقنين وقبائل عمال وفلاحون نساء ورجال طلاب المدارس والجامعات

كان أهم سمة لهذه الحركات وهنا تجاوز للمنظورات الماركسية والليبرالية التقليدية التي كانت تحصر التغيير الثوري في طبقات محددة .

8. تراجع - او تغييب - للشعارات الفئوية والمذهبية والسياسية الجزئية لصالح شعار واحد في إقامة نظام سياسي بديل للنظام القائم الذي يلتف الجميع معاً نحو تغييره وتفكيك مرتكزاته .

9. خروج الشباب إلى الشارع ولعدة اشهر - 18 يوم في مصر وشهر في تونس وأكثر من عام في اليمن ومثله في ليبيا - خلق اهتزاز كبير لدي النظام وافقده مشروعته الشعبية وشرعيته القانونية ولم يعد قادراً على استخدام أساليبه القديمة في الاحتواء والالتفاف هنا لجاء إلى العنف المباشر.

10. رغم التوصيف بان لمجتمع العربي مجتمع محافظ تقليدي يقهر المرأة فقد كان للمرأة ولا يزال حضوراً كبيراً في كل الساحات وميادين التغيير والاحتجاج وحضورها فاعلاً في المظاهرات والمسيرات وفي الندوات والحوارات وفي كافة الفعاليات التي تعتمدها مسارات الثورة في مختلف دول الربيع العربي .

11. لدعم العنفوان الثوري لدي الشباب تم استدعاء الرموز التاريخية المناضلة في سبيل الدولة والمواطنة من مختلف القوى والتيارات السياسية والاجتماعية وتعظيم أدوارها السابقة مما ولد وعياً تراكمياً في مسار النضال الوطني .

12. الإدراك الواعي للشباب بمخاطر الدور الخارجي الغربي عموماً والامريكي خصوصاً علاوة على تدخلات اقليمية من دول النفط وقد عبر عنه الشباب في مظاهراتهم بل وكانت ترفع شعارات و لافتات تندد بهذه الادوار التدخلية .

صفوة القول.... إن هذه الحركات الشعبية تحتاج إلى عقلانية في خطابها وترشيد سلوكها السياسي بتوجيهه نحو الهدف الرئيسي منها وهو تحقيق البديل في الانتقال إلى دولة مدنية

ديمقراطية. ولذلك فإن عدم تنمية القواسم المشتركة في شكل متواز مع طول فترة المظاهرات والاحتجاجات وعدم فرز قيادات ميدانية شابة تتولى التوجيه العام لمختلف الساحات وكل ذلك أتاح الفرصة للقيادات الحزبية ذات المصلحة مع النظام السابق في احتواء الساحات وفق أجندتها الخاصة . ومعنى ذلك أن ضعف الشباب كان واضحا ولم يقوى على ان يحول دون ولوج القيادات الحزبية المنظمة والعسكرية إلى صدارة المشهد بحيث أصبحوا هم في مكان القيادة للساحات وهذا يتعارض كليا مع مسار الاحتجاجات وأهدافها .

وختاما أقول بكلمة واحدة أصبح الشارع العربي قوة تعبيرية وتغييريه فاعلة ولم يعد لأي قوة سياسية رسمية أو حزبية القدرة على تجاوزه وهنا أصبحت المدن وشوارعها مجالا لاستخدام العنف الرمزي الهادف لتغيير النظام وفي المقابل لاستخدام العنف المادي الموجه للمتظاهرين دون سند قانوني . ولأنني متفائل بدور الثورات الشبابية والشعبية فأملني كبير في أن ينتصر العرب في عموم دولهم ومجتمعاتهم لحاضرهم ومستقبلهم فقد عاشوا زمنا طويلا مقهورين وحن الوقت لاستعادة كرامتهم وإنسانيتهم.

مقدمات للثورة
صورة موجزة لساحات التغيير
اهداف للثورة
مكونات الساحات
التلاحم والصراع الاتفاق والاختلاف
الشباب والمرأة
الشعر
كاريكاتور
القصيد الشعبي
المقالات
اللفيس بوك وشباب الثورة
نوبل والثورة
تجميد الساحات
السيطرة على الثورة والساحات
سرقة الثورة
حرق الساحات